الفصل الثاني

عصر الترجمات

بعد موت النبي محمد ﷺ عام 632 للميلاد، وهزيمة قبائل وسط الجزيرة العربية التي ارتدت عن الإسلام، نصل إلى توسع غير مسبوق للعرب: في قرن من الزمن أسسوا إمبراطورية امتدت من إسبانيا إلى سهول الهند. ومع فتح مصر وسوريا والعراق وفارس، أصبح بيد المسلمين بلاد كان أهلها قد وصلوا إلى مستوى عالٍ من الثقافة، ولأن هذه الثقافة كانت محقونة بالثقافة الإغريقية، فقد كان هناك في مجالات معينة وحدة نسبية في الصورة الثقافية.

بعد أن أصبح الشرق الأدنى مسيحياً أكثر فأكثر، فقدت اللغة اليونانية أهميتها بوصفها لغة أساسية، في حين ازدهرت مرة أخرى اللغات المحلية مثل الآرامية في سوريا، والقبطية في مصر، والبهلوية في إيران. ولأن المثقفين والعلماء لم يعودوا قادرين على فهم اليونانية، فقد أصبحت الحاجة ماسة إلى ترجمة الأعمال اليونانية إلى اللغات القومية. أدى طبع الكليات بالطابع المسيحي في القرن السادس أيضاً إلى تحول في المناهج. فبينما كان يتم سابقاً تدريس الشعر اليوناني والمأساويات والتأريخ وشرحها، إضافة إلى الفلسفة والطب والعلوم

obeikandl.com

الدقيقة، فقد اقتصرت المناهج على الفروع الثلاثة الأخيرة؛ لأن هذه المعارف فقط هي التي كانت تلائم المعتقدات الدينية الجديدة، وتفيد في الحياة العملية. لذلك، عندما أصبح العرب فيما بعد «التلاميذ الحديثين الثانويين» لليونان، فإن ذلك لم يكن بسبب أنهم لم يكونوا مهتمين بالموضوعات الإغريقية، بل لأن تدفق هذه الموضوعات كان قد نضب سلفاً. كان العرب قادرين فقط على تعلم ذلك الجزء من العلم اليوناني الذي كان المسيحيون في سوريا ومصر قادرين على تقديمه.

تظهر المدة المتأخرة في جامعة الإسكندرية من القرن الرابع حتى القرن السابع هذا الميل بالتفصيل. برز في التفسير الأرسطوي أمونيوس وجون فيلوبونوس وديفيد وإيلياس وستفانوس. لا يعرف سوى القليل عن أساتذة الطب. شرح بالاديوس وأسكليبيوس بعض كتابات أبقراط في القرن السادس. ولكن بعد فتح العرب للإسكندرية عام 642 للميلاد، بقيت المدرسة قائمة إلى نحو عام 719. حتى تحت الحكم الإسلامي، ربما بقيت اللغة اليونانية مستعملة في التدريس والكتابة. يفسر ذلك لماذا لا يوجد لدينا سوى الترجمة العربية لمختصر الأعمال الأساسية الستة عشر لجالينيوس، أو لكتاب «**طب الأطفال**» الذي كتبه بول من أجينيا. لم يعد ممكناً بالطبع أن تصل النصوص اليونانية إلى القسطنطينية بسبب تغير الحدود السياسية الموجودة. لذلك لم يعد بالإمكان أن نعرف كثيراً عن جيسيوس وأنقيلاوس وجون ومارينوس الذين حرروا كتابات جالينيوس. تعرف أسماؤهم فقط من المراجع العربية. لا نعرف بالتأكيد إذا انضم العرب إلى زمرة هؤلاء الأطباء، كما يذكر عن

عبدالملك بن أبجار الكناني الذي يقال: إنه أصبح الطبيب الشخصي للخليفة عمر بن عبدالعزيز (حكم من 717 - 720 للميلاد).

حافظ الأمويون على نظام الإدارة والمؤسسات الأخرى في البلاد المفتوحة، أي إنهم ببساطة أخذوها، لكنهم لم يأبهوا لانتحال الثقافة الإغريقية؛ لأن اهتمامهم كان منصباً خارجياً على الفتوحات وداخلياً على تقوية الإمبراطورية. تبدل هذا الوضع تبدلاً كاملاً بعد سيطرة الخلفاء العباسيين وإنشاء بغداد. نالت أغرقة الإسلام التي بدأت دفعةً قوية من التنظيرالإسلامي، حيث استخدم المنظّرون أسلحة الجدل والمنطق اليوناني لإعطاء الدين الإسلامي أساساً عقديًّا. استخدم البناؤون والمهندسون الرياضيات والآلات الإغريقية، واستخدم الجغرافيون النظام الجغرافي الذي وضعه بطليموس؛ ونشأ لأسباب مشابهة اهتمامٌ بعلم الفلك والتنجيم والكيمياء. يقع الطب أيضاً في هذه الفئة.

الأعمال اليونانية

كانت الترجمات قبل عام 800 قليلة ونادرة، لكن بعد ذلك نالت الأعمال اليونانية اهتماماً لم تكن لتحلم به.

نشط المترجمون في عهد الخليفة المأمون (حكم 813 - 833 للميلاد) مثل أيوب من إيديسا الذي ترجم حصراً إلى السريانية، ويحيى بن بطريق الذي ندين له بالنصوص العربية الأولى. أسس المأمون أيضاً بيت الحكمة[1]، وهو بمنزلة كلية وجد فيها المترجمون مكان عمل ملائم

obeikandi.com

مجهز بالأدوات اللازمة للعمل. كان أهم مترجمي منتصف القرن حنين ابن إسحاق (808 - 873)، الذي ترجم بحسب رغبة ساداته إلى العربية، وأحياناً إلى السريانية. كان يسانده ابنه إسحاق وابن أخيه حبيش الأعصم وكذلك عيسى بن يحيى. أسهم عدة مترجمين معاصرين أو علماء شباب، مثل إصطفان بن باصيل، وقسطا بن لوقا، وثابت بن قرة، في جزء كبير من ترجمة الكتب الطبية أو في تصحيح الترجمات الأقدم الخاطئة.

يعطينا حنين وصفاً لترجمات جالينيوس في وثيقة مهمة جداً هي «رسالة إلى علي بن يحيى بن منجم». عدد في هذه الرسالة 129 كتاباً من كتابات جالينيوس، موضحاً موضوعاتها ومحتواها وأسماء الأشخاص الذين ترجموها إلى السريانية أو العربية. ويا للأسف! لا تعطي تقاريره دائماً صورة واضحة للوضع. يشرح حنين في مقدمته الطريقة التي اتبعها في الترجمة. حاول قدر الإمكان الحصول على عدة نسخ يونانية ليوافق بينها ويحصل على نص موثوق. لم يكن يترجم بالمحاكاة كلمة بكلمة، بل أراد أولاً أن يفهم كامل الجملة؛ كي يعيد صياغتها صياغة ملائمة في اللغة العربية. لم يغنِ علمَ المصطلحات العلمية بالترجمات الملائمة وبالأشكال الجديدة للكلمات (الألفاظ الجديدة) وبضم الكلمات الأجنبية فحسب، بل أدخل أيضاً بنى تحليلية-تركيبية جعلت اللغة العربية أداة قادرة على التعبير عن الأفكار المعقدة والتجريدية. يُعد هذا التكوين اللغوي إنجازاً كبيراً في فقه اللغة من الطراز الأول، وهو جدير بالتقدير؛ لأنه لم يتلقَّ سنداً من العلماء المختصين في فقه اللغة، حيث كان هؤلاء مهتمين فقط بالشعر البدوي وبتفسير القرآن الكريم.

سرعان ما أصبح حنين معروفاً بصفته مترجماً ممتازاً. عندما لم يكن النُّساخ أو الدارسون للمخطوطات الذين جاؤوا فيما بعد يعرفون من ترجم نصاً من النصوص، فإنهم كانوا دائماً مستعدين لوضع اسم حنين على الترجمة. لهذا السبب ظهر عند البحث الأدق أن كثيراً من الترجمات التي نسبت إلى حنين لم تكن كتابته[2]. حصل الأمر نفسه لاحقاً في العصور الوسطى في الترجمة اللاتينية في استخدام اسم جيرارد من كريمونا.

كان جالينيوس أهم الأطباء اليونان في نظر العرب. لم يكن ليحصل سوى ذلك؛ لأن طب جالينيوس كان منذ القرن الثالث يهيمن شرقاً من العالم الإغريقي[3]. وبحلول القرن التاسع الميلادي، كانت معظم أعمال جالينيوس تقريباً قد ترجمت إلى اللغة العربية. عدَّد حنين في رسالته المذكورة سابقاً عدداً لا يقل عن 129 من مؤلفات جالينيوس. وبناء على هذا، فقد كان لدى العرب في ذلك الوقت من كتابات جالينيوس والكتابات المنسوبة إلى جالينيوس أكثر مما نملكه اليوم. لكن تأثير جالينيوس الطبي لم يقتصر على أعماله الأصلية. لقد ترجمت بعدها مختصرات كتابات جالينيوس الأساسية التي كتبت في الإسكندرية، ويبدو أن هذه المختصرات بالذات (التي تسمى الملخصات الإسكندرية) أثرت تأثيراً خاصاً عندما نسق العرب النظرية الطبية وكوّنوها في تكوينها الأساسي المبدئي. يبدو من هذا العمل أن الأطباء العرب لم يستفيدوا في البداية من أعمال جالينيوس الأصلية؛ لأن إسهابها والتناقض الجزئي الموجود فيها كان يجعل الوصول إلى بنية نظرية مفهومة وثابتة أمراً صعباً؛

لقد لجؤوا بدلاً من ذلك إلى الملخصات التي يبدو أن العمل قد تم فيها سابقاً على توحيد نظريات جالينيوس وتنسيقها. نستطيع فقط بهذا النحو أن نشرح كيف هيمن الطب الجالينيوسي المرتّب، أي المبسط جزئياً والموسّع جزئياً، على الطب العربي مثلما وجدنا سابقاً في العمل التقديمي لحنين (كتاب المدخل) ذي النفوذ الكبير. وهذا ما سنراه كثيراً في بقية البحث.

لكن أعمال جالينيوس الأصلية نشرت طبعاً في نسخ عديدة؛ كانوا كثيراً ما يقتبسون من هذه الأعمال أو يعلقون عليها أو يصوغونها على صيغة سؤال وجواب لأهداف تعليمية. من هنا نرى أن تعليم جالينيوس قد حدد الطب العربي في جميع النقاط الأساسية: يأتي من جالينيوس تعليم الأخلاط، وفيزيولوجيا الاستقلاب، ونظريات عمليات الهضم الثلاث، وحركة الدم التي سنتعامل معها لاحقاً. من جالينيوس يأتي مفهوم الدرجات الأربع للأدوية؛ من جالينيوس يأتي التفكير الغائي الذي يسعى إلى إدراك كل عضو وكل عملية من حيث هدفها وشرحها. أخيراً، يمكن تقفي المنطقية التي تركت أثرها في معظم كتابات العرب إلى جالينيوس.

أما تعاليم أبقراط، فقد كانت فقط تواكب في ظل جالينيوس. كان اسم أبقراط مشهوراً أيضاً حقاً بين العرب، وعندما أطلق على عبدالرحمن بن علي بن أبي صادق من نيسابور (توفي عام 1068) لقب «أبقراط الثاني» كان ذلك لقباً فخرياً عظيماً شارك فيه ديوكليس من كاريستوس. تظهر حقيقة الطلب من الأطباء العرب أن يقسموا قسم

أبقراط مدى قوة ارتباط الأخلاق الطبية باسمه طوال مدة سحيقة. كان من المعروف في الواقع أن عدة مؤلفين شاركوا في وضع الكتابات الأبقراطية. يعتقد ثابت بن قرة أن هناك أربعة مؤلفين جمعت كتاباتهم في التحرير، سماهم البوقراطيين، كما نسمي نحن الأبقراطيين[4]. لكن اهتمام المترجمين وساداتهم بأبقراط كان أقل كثيراً من اهتمامهم بجالينيوس. بقيت أعمال مهمة مثل الكتابات العظيمة في التوليد وأمراض النساء دون ترجمة، مثل عن أمراض النساء، عن طبيعة النساء، عن النساء العقيمات، عن الشهرين السابع و الثامن للجنين. وعندما ترجمت أعمال بسيطة مثل عن الحمل فوق الحمل إلى العربية فقد كان ذلك بمحض المصادفة[5]. يوجد في الواقع نسخ عربية لكتاب **الحِكَم**، وكتب **عن طبيعة الإنسان، عن الأعمال الطبية، عن الهواء والماء والبلدان**، لكن لم تكن هذه النسخ ترجمة مستقلة فقد كانت ترجمة لتعليقات على براهين جالينيوس التي اقتبست ثم صيغت صياغة ثانوية.

تكررت هذه الطريقة من النقل الثانوي لبراهين جالينيوس مع بالاديوس الذي عاش في الإسكندرية في القرن السادس. تُرجمت تعليقاته عن الحِكم، وعندما كتب المؤرخ اليعقوبي ثلاثاً وستين حكمة من حكم أبقراط، فإنه اختارها فقط من هذه التعليقات[6]. لذلك ببساطة لهذا السبب كان المعلقون الإسكندريون غير المهمين نسبياً أكثر أهمية للعرب من أبقراط نفسه؛ لأنهم كانوا أقرب زمناً، ولأنهم قدموا نموذجاً أبسط من محتوى كتابات أبقراط الصعبة مزينة بروح جالينيوس. لم يكن هناك قلة في مخطوطات هؤلاء المعلقين، في حين كانت بعض كتابات أبقراط الأصلية نادرة جداً. لذلك لا ندهش إذا علمنا أن كتاباً **عن**

أمراض النساء الكبير المؤلف من مجلدين لم يترجم إلى العربية، في حين امتلك العرب من ناحية أخرى ترجمة تعليقين على الكتاب من المرحلة الإسكندرية المتأخرة: عزي أحدها خطأ إلى جالينيوس، وكتب الآخر طبيب يدعى أسكليبيوس الذي كان تلميذاً لفيلسوف من المدرسة الأفلاطونية الجديدة هو أمونيوس بن هيرمياس.

حالة كتاب أبقراط **عن السلوك** الذي لم يترجم كاملاً حالة نموذجية أيضاً. تعود الاقتباسات من هذا الكتاب التي نجدها في عدد من الكتب العربية، كما أظهر الدكتور رينير ديغين، إلى كتاب **الأغذية** لحنين بن إسحاق، الذي أخذه أو ترجمه في إعداده مقاطع تخدم هدفه من كتاب **عن السلوك**. أخذت العناصر الأساسية لكتاب الأغذية لحنين عامة من كتاب جالينيوس **عن صفات الأطعمة**.

التغيرات الضرورية: الأمر الذي حصل سابقاً في زمن الإمبراطورية الرومانية والذي حصل بعد ذلك أيضاً في أوروبا في العصور الوسطى، كرر نفسه في العالم الإسلامي في القرن التاسع. ذلك الأمر هو حقيقة أن نقل أعمال جالينيوس قد طورت تطويراً حاسماً طب أبقراط، وأن أبقراط يدين في المكانة المرموقة التي نالها لجالينيوس.

تلقى علم الصيدلة العربي أقوى دفعاته من كتاب **المادة الطبية** الذي كتبه ديوسقوريدس (كتبه عام 77 للميلاد) الذي لم تترجم مجلداته الخمسة الأصلية فحسب، بل ترجم أيضاً الكتابان المشكوك في أصالتهما السادس والسابع عن النباتات والحيوانات السامة. أكثر النسخ انتشاراً كانت النسخة التي رتبها إصطفان بن باصيل ونقحها

حنين بن إسحاق. لا تزال توجد حتى اليوم نسخ كثيرة من المخطوطات، كثير منها مشروح شرحاً جميلاً جداً[7]؛ استخدم جميع الأطباء والصيدلانيون العرب تقريباً هذا الكتاب، ولقد اقتُبس منه اقتباسات كثيرة جداً في واقع الأمر، بحيث يمكن القول: إنه من أفضل الكتب التي نقلها العرب. أطرى البيروني (توفي 1048 للميلاد) - الذي اشترك عندما كان قد تجاوز الثمانين من العمر مع أحمد بن محمد النهشاعي في كتابة كتاب مهم في الصيدلة[8] - حماسة اليونان الباهرة للبحث. «لو عاش ديوسقوريدس في بلادنا ووجه جهوده لتحديد تأثير النباتات الموجودة في تلالنا وأوديتنا، لاستعملت هذه النباتات أدوية وأصبحت الثمار يُستشفى بها بفضل خبرته».

هناك تأثير مهم آخر هو تأثير روفوس من إيفيسوس. كان روفوس طبيباً في زمن الإمبراطور تراجان، وتُرجم من كتبه ما لا يقل عن ثمانية وخمسين كتاباً إلى العربية. تعامل في هذه الكتب مع أسئلة تتعلق بآلية حصول الأمراض وبالحمية، حيث ناقش أمراض الكلية والمثانة، والتهاب المفاصل، واليرقان، والسوداوية، والحفاظ على صحة الأطفال والصبايا والمسافرين، وفن الادّكار، وتسمية أجزاء جسم الإنسان وأشياء أخرى إضافة إلى ذلك.

في طريقة مشابهة، كتب فيلاغريوس الذي عاش في القرن الرابع بعد الميلاد كثيراً من الكتابات المختصة بموضوعات محددة ناقش فيها مشكلات الأمراض الباطنة خاصة. ترجم أكثر من عشرة من كتبه إلى

العربية، كما ترجمت كتابات عن تناول الطعام وعرق النسا والنقرس وآلام المعدة والمغص والداء السكري واستسقاء البطن والصدمة الهيستيرية.

عمل كريتو طبيباً خاصاً للإمبراطور تراجان في روما من بداية القرن الأول حتى القرن الثاني للميلاد. ترجم كتابه الأساسي **مواد التجميل** إلى العربية، الذي تعامل، كما كانت العادة آنذاك، مع طيف واسع من أمراض الجلد. لكن الترجمة فقدت كلها كما فقد الأصل اليوناني. تظهر لنا المتفرقات العربية الكثيرة جداً، التي حافظ لنا عليها الرازي والبلدي وابن الجزار، بأجمل صورة للمقطع الذي ضمّنه جالينيوس في كتابه **عن التراكيب الدوائية**.

يعتقد أن أنتيلوس الذي حظي بسمعة عظيمة، خاصة في حقل الجراحة، قد عاش في القرن الثاني للميلاد[9]. ترجم كتابه **في الجراحة** أيضاً إلى اللغة العربية، وترجمت بعض الكتابات الجراحية القصيرة، التي كتبها بلاتو، وهو طبيب من مدة ما قبل جالينيوس كان قد تخصص باستعمال الحديد في الكي.

كان هناك أيضاً سلسلة كاملة من الرسائل عن التنظير البولي، وهي وسيلة تشخيصية شائعة الممارسة مرموقة جداً. نعرف أربعة مؤلفين بأسمائهم وهم ماغنوس وبيثاغوراس وستيفانوس وأركيلوس الذين ربما عاشوا في القرن السادس للميلاد.

أخيراً يجب أن نذكر أربعة مؤلفين بيزنطيين عظام: أويباسيوس (326 - 403)، وهو الطبيب الخاص لجوليان المرتد، وإيتيوس من أميدا

الذي كان نشيطاً في زمن جوستينيان (حكم 527 - 67)، وألكساندر من تراليس (توفي 605)، وبول من أجينا الذي عاش في زمن هيراكليوس (حكم 610 - 641) الذي قد يكون قد شاهد شخصياً كيف سقطت الإسكندرية في يد العرب عام 642 للميلاد. أثرت كتابات هؤلاء في الطب العربي تأثيراً لا نستطيع أن نقوّمه بعد. حيث قلد الرازي وأحمد بن محمد الطبري والمجوسي وابن سينا والزهراوي وابن هبال وعدد كبير من غيرهم نمط الأدب الطبي الذي قدمه هؤلاء، وهو التقديم الكامل الملم بجميع النواحي للطب. اتبع العرب بعناية النموذج الذي قدمه بول من أجينا في الجراحة وفن التوليد[10].

لم يكن كتاب جالينيوس عن الآليات الإمراضية هو المرجع الرئيس دائماً، بل كان المرجع كتاب إيتيوس الذي تداخلت فيه تعليمات جالينيوس مع تعليمات أطباء آخرين. أفادت الخلاصة بالطريقة نفسها التي أفادت بها **الملخصات الإسكندرية**، أي إنها قدمت المادة العلمية تقديماً تجاوز جالينيوس، حيث كانت أكثر شمولاً، لكنها كانت جزئياً في الوقت نفسه ممددة أكثر. لم تنتشر **المجموعة الطبية** التي كتبها أوريباسيوس انتشاراً واسعاً بين العرب بسبب حجمها الضخم. كانت هذه المجموعة قد تأثرت بجالينيوس تأثراً أساسياً[11]؛ لكنها عرّفت العرب أيضاً مختصرات عدد من كتّاب يونانيين آخرين ينتمون إلى مدارس فكرية أخرى مثل إيراسيستراتوس، وهيروفيلوس، وديوكليس من كاريستوس، وأثينايوس، ومنيسيثيوس، وديوتشيس وغيرهم. سوف نشرح لاحقاً إلى أي مدى شمل العرب قاصدين هذه المدارس المنحرفة من الأفكار

في نظامهم. أخيراً، سمحت الأعمال العلاجية العظيمة لإسكندر من تراليس للعرب أن يلقوا نظرة على السحر الإغريقي الذي يؤكده كاتب هذا الكتاب أكثر مما فعل أي كاتب آخر[12].

لكن كتاب إسكندر لم يكن الكتاب الوحيد الذي عرّف العرب السحرَ. ترجم إضافة إلى هذا الكتاب عدد كبير من كتابات السحر مثل كتاب **كيرانس** على سبيل المثال الذي يشرح كيفية صنع التمائم من حجرة وطير وسمكة ونبات، حيث يمكن عندئذ استعمال هذه التمائم لممارسة طقوس ومعالجات سحرية[13]. وُصفت التأثيرات السحرية والعلاجية للحجارة في كتاب كتبه كسينوكراتس من إيفيسيوس (القرن الأول للميلاد)، الذي نقل إلى العربية في بداية القرن التاسع وأصبح أنموذجاً مبدئياً لكتابات أخرى مشابهة كثيرة، منها كتاب الحجارة الشهير الذي ينسب باطلاً إلى أرسطو[14]. سوف نشرح في الفصل الأخير من هذا الكتاب كيف استطاع الأطباء العرب جمع طب جالينيوس المنطقي مع السحر والتنجيم.

عندما يقرأ المرء جميع الكتب التي ترجمها العرب من اليونانية، يحق له أن يُدهش من الحجم الغزير للمعلومات الطبية الذي زُرع في عالم جديد. عرِّبت مئات الأعمال في أثناء القرن التاسع، مما يعطي المرء للوهلة الأولى انطباعاً أن العرب قد أخذوا الطب اليوناني كاملاً. لكن يجب ألّا ننسى أنه كان هناك حدٌّ يمكن أن تبلغه هذه المحاولات. يجب أن نتذكر أن هناك مؤلفين معينين يونانيين لم يعرفهم العرب. لقد ذكرنا سابقاً أن كمية ضخمة من أعمال أبقراط بقيت غير معروفة إطلاقاً عند

obeikandi.com

العرب، وأن أعمالاً أخرى نقلت إلى العربية نقلاً غير مباشر عن طريق تعليقات جالينيوس، بحيث يمكن القول: إن أبقراط وصل إلى العرب، نوعاً ما، سائراً خلف جالينيوس. لم تعد مخطوطات عالمي التشريح العظيمين الإسكندريين إراسيستراتوس وهيروفيلوس موجودة زمن حنين، لذلك عرف العرب بعضاً من أفكار هذين الطبيبين فقط عن طريق انتقادات ومقتطفات كتبها جالينيوس على كتب الطبيب أوريباسيوس[15]. ثم إن كتاب أريتايوس من كابادوسيا الذي تحدث عن أسباب الأمراض الحادة والمزمنة وعلاماتها لم ينقل إلى العربية؛ لأنه لم يقتبس منه في العصور القديمة سوى عدد قليل من الأطباء؛ وربما كان سبب ذلك هو أنه كتب باللهجة الأيونية اليونانية المهجورة.[16] ويا للأسف، ولذلك السبب، لم يتعرف العرب الأوصاف الممتازة الحية الرائعة للأمراض وعلاماتها التي قدمها أريتايوس. ربما كان الحظ هو السبب في عدم ترجمة كتب سورانوس. كان سورانوس الذي عاش في إيفيسوس في بداية القرن الثاني أهم من يمثل المدرسة «المنهجية»، وكانت أعماله أهم كتابات العهود القديمة عن طب النساء. كان سورانوس يُعد دائماً في العالم الغربي في العصور الوسطى ثالثاً بعد جالينيوس وأبقراط؛ أما في الشرق، من ناحية معاكسة، فلم يرتبط اسمه إلا بأقل قدر من المعلومات.

الأعمال السريانية

يمكن جزئياً شرح حقيقة أن الطب اليوناني استوطن العرب في قرن واحد من الزمن بحقيقة أنه زرع في تربة كانت قد تشربت الإغريقية سابقاً على مدى قرون من الزمن.

تم نقل الطب اليوناني إلى السريانية في مدتين أساسيتين. كان أشهر شخص في المدة الأبكر هو سيرجيوس من رشعينا (توفي 535)، الذي ترجم عدداً وفيراً من كتابات جالينيوس. جاءت المدة الثانية بعد 300 عام. برز في هذه المدة أسماء مثل جوب من إيديسا (توفي بعد 832) وحنين وتلامذته. لذلك تزامن هذا مع الحركة الثقافية العظيمة التي قادها الخلفاء العباسيون، ويجب ألّا ننسى أن هناك أعمالاً يونانية نقلت إلى العربية في ذلك الوقت من السريانية، لا مباشرة من اليونانية.

لكن السريان لم يقتصروا فقط على دور الوسيط. ولأنهم كانوا ملمين بمفاهيم الطب اليوناني ومحتوياته، فقد نشروا كتابات مستقلة بلغتهم الخاصة نقلت بعدها إلى العربية في القرن التاسع، ونقلت بالطريقة نفسها النسخ السريانية من الأعمال اليونانية. كان من بين هذه الكتب كتاب عن الاستسقاء كتبه سيرجيوس من رشعينا، وكتاب عن التنظير البولي كتبه جوب من إيديسا، وثلاثة مختصرات عن الطب العام نشرها شليمون وشمعون طيبوثيه ويوحانان بار سيرافيون (يوحنا ابن سيرابيون).[17] نقل عمل هذا الأخير إلى العربية ثلاث مرات ومن ثم من العربية إلى اللاتينية، حيث كثيراً ما ظهر ونشر تحت عنوان **ممارسة يوحنا سيرابيون، أو ما يعرف باسم المختصرات العملية.**

الأعمال الفارسية

كان خط النقل الذي امتد من اليونان عبر الإمبراطورية الفارسية إلى العرب يشبه خطوطاً مماثلة من النقل في العالم السرياني، كان

obeikandl.com

يقرب الأطباء اليونان والأطباء المصريين في بلاد الإمبراطورية الفارسية ويُفضلون على ممارسي السحر والطب الديني من الفرس. كان أشهر هؤلاء اليونان ديموسيدس من كروتون الذي استشاره داريوس الأول (حكم 521 - 485 قبل الميلاد)، وستيزياس من سنيدوس الذي كان الطبيب الخاص لأرتاكسيركسيس الثاني منيمون (حكم 405 - 359 قبل الميلاد)[18].

يفترض، بحسب فقرة في كتاب دنكارت أن شابور الأول، وهو ابن أرداشير (حكم 241 - 272) «قد جمع كتباً في الطب والفلك والحركة والوقت والفراغ والمادة والخلق ونشوء الكون والموت والتغير والنمو وفنوناً وحرفاً أخرى» من الهند والإمبراطورية البيزنطية ودول أخرى[19]. قد يكون لهذه المعلومات علاقة بانتصار شابور على الإمبراطور فاليريان عام 260، حيث أُسر فاليرين وجاء الفنيون والعلماء الرومان إلى بلاد الفرس أسرى مع جيشه. استقر هؤلاء أساساً في خوزستان وأدت محاولة الملك لإنشاء مسكن للعلماء؛ كي تستفيد منهم البلاد، إلى ظهور مدينة غونديشابور. تحت حكم خوسرو الأول أنوشاروان (حكم 531 - 578) وصلت الإمبراطورية الساسانية إلى قمة ازدهارها الثقافي. أهدى بولوس بيرسا كتابه عن منطق أرسطو، المكتوب بالسريانية، إلى هذا الحاكم. يمكن أن نرى بوضوح التأثير اليوناني في كتابات القرون الوسطى لذلك العهد: كانت مفاهيم البرد والحرارة والجفاف والرطوبة قد استعيرت، ثم تبلورت، من مبدأ ثنائية الأسباب الذي وضعه زوروأستريانس: البرد والجفاف هما العاملان السيئان اللذان يجب على الطبيب أن يتخلص منهما عن طريق الأدوية والأطعمة الدافئة والرطبة[20]. مع أنه لا يوجد

في الواقع أي شاهد مباشر، إلا أن المرء يستطيع أن يفترض بالتأكيد أنه على الأقل في عهد خوسرو الأول نقلت أعمال طبية يونانية كاملة إلى لغة الباهالفي الفارسية. هذا الاستنتاج واضح إذا نظرنا إلى كامل السياق الثقافي. لقد تأثر الفن الساساني وتعدل في طرق كثيرة بالفن البيزنطي[21]. كانت هناك ترجمات فارسية متوسطة لكتابات كاسيانوس باسوس سكولاستيكوس (القرن السادس للميلاد) في علم الزراعة، وكتابات كل من فيتيوس فالنز (القرن الثاني للميلاد) وتيوكروس (القرن الأول أو الثاني للميلاد)[22]، إضافة إلى كتابات ألماغيست من بتوليمي في علم التنجيم[23]. نعرف من هذا أن نسخهم الفارسية نقلت بعدئذ إلى العربية في أواخر القرن الثامن أو في القرن التاسع للميلاد. نستطيع الآن من قراءة المصادر العربية أن نرجع إلى النصوص الطبية الفارسية المتوسطة. وسأحاول فيما يلي أن أقدم أربعة أعمال نقلت إلى العربية.

يتألف العمل الأول من قائمة من البدائل (**الأبدال الدوائية**). يظهر في هذه المجموعة ما هي الأدوية التي يمكن للصيدلاني أن يستعملها بوصفها بديلاً عندما لا يستطيع أن يوفر أو يدبّر الأدوية التي وصفها الطبيب لمريض ما. أمثال هذه القوائم معروفة منذ زمن قديم، على سبيل المثال، يعزى كتاب أدب الأدوية لجالينيوس. يكشف هذا الكتيب الصغير الذي نناقشه هنا، والذي لا يوجد اليوم إلاّ في نسخته العربية، مباشرة عن مصدره الفارسي؛ لأنه يستعمل الأسماء الفارسية القديمة للنباتات والأدوية استعمالاً حصرياً تقريباً. تسمى الفاشرا البيضاء باسمها الفارسي زهر جاشان (بدلاً من الاسم العربي كارما بيضاء)،

ويسمى الغار القزم هفت بارغ (بدلاً من مزعرون)، ويسمى ظل الليل الأسود رباح تورباك (بدلاً من عنب الثعلب). اسم الكاتب بالعربية بدغورس، يبدو أنه كان طبيباً يونانياً يدعى بيثاغوراس موظفاً مثل ديموسيدس وستيزياس عند الفرس. على الأقل لم يكن موجوداً قبل العصر الساساني، لذلك ربما يكون قد عمل في غونديشابور. تمثّل الفرس اسمه في لغتهم، حيث لا بد أنه كان على شبه بادهيغوراس. وعندما نقلت كتاباته إلى العربية سمي بدغورس[24].

حفظ الكتبة العرب نحو خمسة وعشرين عملاً من مجموعة الأعمال الثانية[25]. يمكن من هذه الكتابات أن نستخلص أن اسم الكتاب هو «الوصفات البسيطة». يتعامل الكتاب جزئياً مع أدوية أصلها هندي لم يعرفها اليونان، مثل جوز المستنقع بلاطور في الفارسية البهلفية وبلاتور في السنسكريتية بهالاتاكا. والمَوْز في الفارسية البهلفية مُوز وفي السنسكريتية موكا. من ناحية أخرى، كانت تذكر من آن إلى آخر درجة تأثير الدواء، وهذه سمة مميزة لجالينيوس. لذلك لا بد أن هذا الكتاب نشأ عندما تقاطعت خطوط النقل من الهند واليونان، ويفترض أن ذلك كان في إيران الساسانية. يمكن شرح اسم الكاتب أيضاً بحسب هذا الافتراض. يقرأ الاسم بالعربية القهلمان. شكّل الاسم على نمط الفارسية كما في البهلوان أو القهرمان أو البهتكان أو المرزبان. هناك أيضاً تشابه مع حقيقة أن الأسماء الفارسية عندما تستعمل في العربية يضاف لها «ال» التعريف: أطلق على القائد الفارسي الذي أسره العرب عام 642 في ششتار الهرمزان.

تبدو الأمور مماثلة في حالة العمل الذي اقتبسه الرازي تحت اسم الطب القديم[26]. لا يعني هذا، كما قد يتبادر إلى الذهن، كتاب **الطب القديم** لأبقراط؛ نجد بدلاً من ذلك شروحاً في الطب العام تتعامل مع شلل الوجه والصداع والتراخوما والزحار والغصة الهستيرية وأمراض أخرى. تتطابق هذه الأمراض تماماً مع قائمة الأمراض الموجودة عادة في الكتب اليونانية. لكن ذكرت هنا أيضاً أدوية هندية، لذلك يجب أن ننظر هنا أيضاً إلى مصدر إيراني للكتاب. يبدو أنه بعد أن نقل الكتاب إلى العربية ضاعت صفحة العنوان، لذلك استطاع الرازي أن يضع له عنواناً شرطياً هو **الطب القديم**.

أما العمل الرابع، فلا يبدو أنه كتب في إيران، بل إنه اتبع منهج عمل كاسيانوس نفسه في علم الزراعة ومنهج كتاب علم الفلك. كتب الكتاب باليونانية ثم نقل إلى العربية عن طريق الفارسية البهلفية. الكاتب هو كسينوغراتيس من أفورديسياس الذي عاش نحو عام 70 للميلاد، والذي وصف الأدوية بحسب السحر المزاجي باستعمال أعضاء من الجسد والإفرازات والمصول من الإنسان والحيوانات[27]. نرى هذا كله من جديد في العربية تحت اسم غريب هو الطهوروسفوس: «إذا أخذت بولاً راكداً من شخص ووضعته في أذن مريض يعاني ألماً في الأذن، فإن ذلك يفيده[28]»؛ «وإذا أُخذت قطعة من العاج من ناب ولففتها بقماش أسود وعلقتها حول أعناق الأبقار، فإنها ستحميها من الوباء»[29]. لكن اسم طهوروسفوس مكون من مجموعة أصوات لا يمكن تفسيرها باليونانية ولا العربية. لكن قد يكون من المحتمل أن اسم كسينوكراتس قد تشوه بهذه الطريقة بسبب عجز في كتابات الفارسية المتوسطة.

obeikandl.com

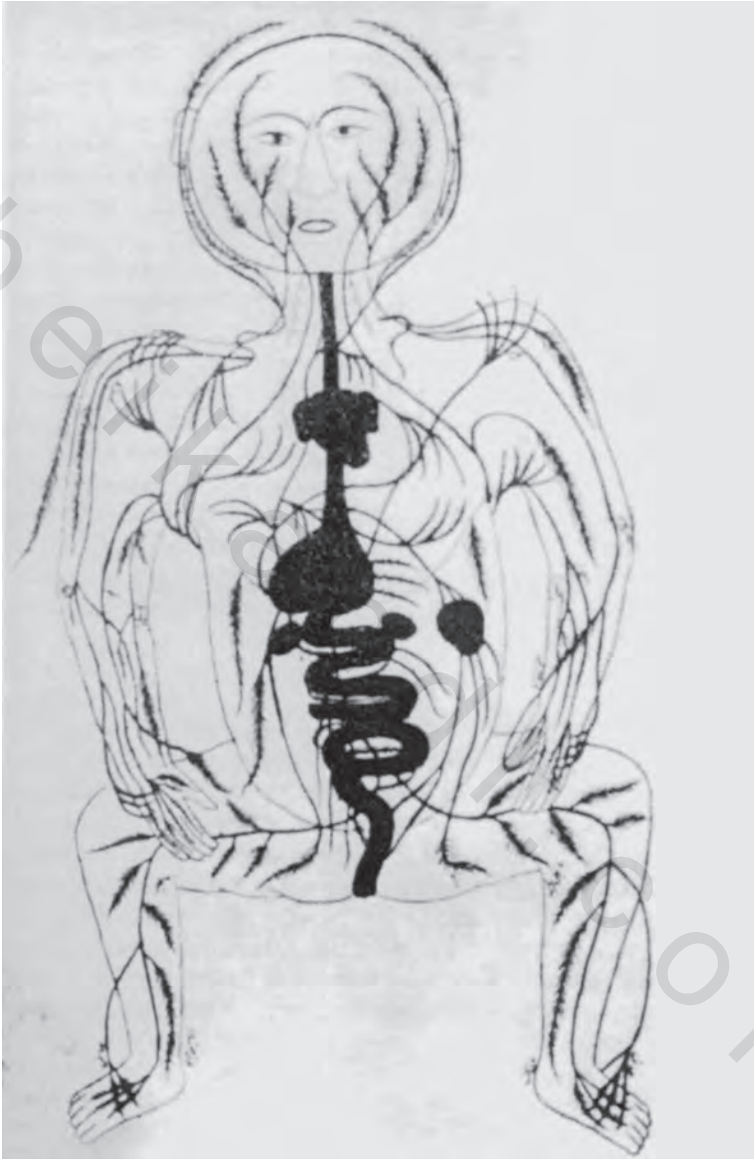

نظام الأوردة وفق المخطوطة الفارسية: 2296, f.12a (مكتبة وسجلات
مكتب الهند)

obeikandl.com

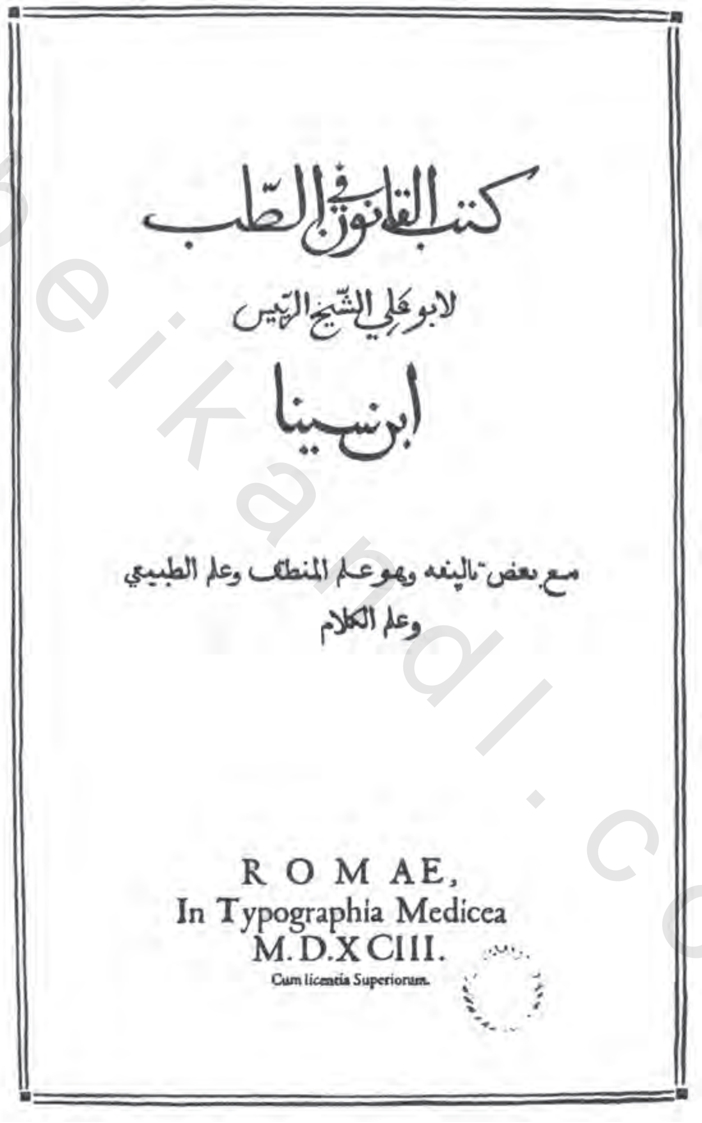
كتب القانون في الطب

لابو علي الشيخ الرييس

ابن سينا

مع بعض تاليفه وهو علم المنطق وعلم الطبيعي
وعلم الكلام

ROMAE,
In Typographia Medicea
M.D.XCIII.
Cum licentia Superiorum.

صفحة العنوان لكتاب القانون في الطب لابن سينا المطبوع بالخط العربي في روما عام 1593 في الطبوغرافيا الطبية

obeikandl.com

الأعمال الهندية

أخذت فارس، بسبب موضعها الجغرافي المميز، كثيراً من الطب الهندي. تحت حكم خوسرو سافر الطبيب الفارسي بورزوي، الذي كثيراً ما نوقشت سيرته المهنية[30]، إلى الهند التي لم يُحضر منها مجموعة **البانكاتانترا** فحسب، بل أحضر معها أيضاً كتباً طبية. يبدو أنه تم الاحتفاظ بأحد هذه الكتب في ترجمة يونانية من العصور الوسطى[31] قد تكون نقلت عن ترجمة عربية وسيطة. عرف العرب في القرن التاسع عدداً من الأعمال الهندية الأخرى.

كان هناك أطباء هنود أيضاً يمارسون الطب في قصور الخلفاء في ذلك الزمن، لكن لا نعرف إذا كانوا هم فقط المسؤولين عن نقل هذه الكتب. وبحسب وصف ابن النديم، فقد نقلت المختصرات الطبية التي تحتوي على تعليمات أغنيفيزا[32]، التي تدعى الكاراكا سامهيتا من الهندية إلى الفارسية أولاً ثم إلى العربية التي نقلها إليها عبد الله بن علي. كثيراً ما استعمل محمد بن زكريا الرازي هذا الكتاب الذي كان يشير إليه باسم شاراك عندما يقتبس منه. عاش سوسروتا نحو عام 400 للميلاد. يُعد كتابه سوسروتا-سامهيتا أحد أهم الأعمال الهندية. يروي ابن النديم كيف استأجر البرمكي يحيى بن خالد الطبيب الهندي مانكاه لنقله إلى العربية. يفترض أن مانكاه نفسه هو الذي نقل «كتاب السموم لشناق» إلى العربية. يمثل هذا العمل حالة مثيرة للاهتمام. يطلق على كناكيا، وزير الملك كاندراغوبتا من سلالة ماورا (320 قبل الميلاد)، باللغة العربية اسم شناق، وهو الكاتب المفترض لكتيب عن

فن الحكم **كاوتيليا أرثازاسترا**، لكن هذا الكتاب واحد فقط من عدة مراجع عن السموم. توجد محتويات مماثلة عند كاراكا وسوسروتا، لكن لا نزال نجهل المصدر الهندي المباشر «لكتاب السموم». كتاب السموم هذا بحسب جميع المقاييس هو العمل الطبي الهندي الوحيد الذي حفظت فيه النسخة العربية كاملة في عدة مخطوطات. يستطيع الملك باستعمال هذا الكتاب أن يضع نفسه في موقف يحمي فيه نفسه ضد التسمم[33].
يجب في هذا السياق أن نذكر أيضاً أن الطبيب الفارسي العربي علي بن سهل الطبري أعطى في فهرس كتابه **كتاب فردوس الحكمة** (الذي نشر عام 850) شرحاً لنظام الطب الهندي. اعتمد علي على ترجمة فارسية أو عربية لكتب كاراكا وسوسروتا وفاغبهاتا ومادهافاكرا. لا ينظر إلى العناصر الخمسة: الهواء والريح والنار والأرض والماء على أنها مواد بل على أنها مقادير ديناميكية فاعلة. بدلاً من أربعة أخلاط، هناك ثلاثة فقط: الريح والصفراء والبلغم؛ والمواد الأولية السبع التي تدخل في عملية الهضم وهي الدم واللحم والشحم والعظام والنِّقْي (مخ العظم) والمني. لكن ابن الساحل لم يلزم نفسه بهذه التعليمات بل اكتفى بمجرد وصفها. يتكون الجزء الكبير من كتابه كاملاً من طب أبقراط وجالينيوس وفلسفة أرسطو[34].

العواقب

بعد هذا المسح للمواد المتوافرة، دعونا نذكّر أنفسنا بالوضع الذي وجد فيه الأطباء العرب أنفسهم في نهاية القرن التاسع. تأثر العرب كما رأينا من نواحٍ أربع: باليونان والسريان والفرس والهنود. وقع

obeikandl.com

دور نقل الإرث اليوناني والهندي في هذا المجال أساساً على السريان والفرس. كان الطب اليوناني أهم مكون في هذه العملية في كل من سعة المجال والمحتوى. سوف نصف نشوء هذا الطب باختصار؛ لنستطيع أن نحكم كيف تعامل العرب أو اضطروا إلى التعامل معه.

أخذ الطب اليوناني التقليدي خطاً حياً متنوعاً غير اعتيادي من التطور. جمعت في كتاب قانون أبقراط وجهات النظر المختلفة لمدرستي كوس وكنيدوس. أما كتاب الطب القديم فقد كان عملاً عملياً يفترض أن يُظهر مزايا «الطب القديم» على الفلسفات الجديدة. وُسِّعت ونظمت في كتاب طبيعة الإنسان المعلوماتُ المتعلقة بالأخلاط من حيث إنها أربعة. تركز الطب الأثيني على بيريباتيتكس، غير أن ديوكلس من كاريستوس كان يحتل مكانة خاصة. في العهد الإغريقي، ابتعد الطبيبان العظيمان إيراسيستراتوس من سيوس وهيروفيلس من شالسيدون عن علم أمراض الأخلاط. كان براكساغوراس من كوس (325 قبل الميلاد) في الواقع عالماً في الأخلاط لكنه قدم عقيدة عشرة أو أحد عشر خلطاً. كان العالم المنهجي أسكليبيادس من بيثينيا و سورانوس من إيفيسوس يدرّسان أن الأمراض تعتمد على الضغوط المختلفة في الفتحات. أما طب العهد الإمبراطوري الذي يمثله روفوس وجالينيوس وأريتايوس من كابادوسيا، فقد قدم نهضة لطب أبقراط لكنه شمل انتقائياً اكتشافات الطب الإغريقي وأفكاره. بلغ علم أمراض الأخلاط مجده عندما تم الاعتراف العام بجالينيوس الذي عدّ أبقراط مثالاً ومؤسساً للطب العلمي عامة. عزز الطب البيزنطي الجالينيوسية. لا شك في أن أطباء معينين مثل بوسيدونياس (القرن الرابع) أو إسكندر من تراليس قد قدموا أفكاراً

ومعلومات جديدة كلها، لكن لم تكن هناك أنظمة جديدة. ما تم تناقله كان مجموعاً في بحوث شاملة أو موسوعات، مثل موسوعة أوريباسيوس قبل أي شيء آخر، أو كان مواد مجموعة في ملخصات. لذلك، كانت الجالينيوسية هي العنصر الأساس منذ القرن الثالث.

كان طب جالينيوس انتقائياً جداً. فصّل في الفيزيولوجيا العامة كما أسلفنا عقيدة الأخلاط؛ أما في الفيزيولوجيا الخاصة فقد استخدم الأفكار البلاتونية والستوكية والبيريباتتكية؛ أخذ التشريح من الإسكندريين وكان في علم الأدوية خاصة مديناً لديوسقوريديس[36]. مارس العرب هذه الانتقائية أيضاً. لم يأخذ العرب من جالينيوس فقط بل أخذوا من أطباء يونان آخرين، فقد أخذ بعضهم مباشرة من أبقراط؛ ثم في أسئلة انتقائية من روفوس من إفيسوس، وعرفوا من المؤلفين البيزنطيين (على سبيل المثال أوريباسيوس، بول إيجينا)، على الأقل اقتباساً، تعليمات كثير من الأطباء الآخرين. وهكذا فقد أخذوا أعراضاً لأمراض لم يصفها جالينيوس، مثل الاستذئاب من إيتيوس من أميدا، الذي أعاد في هذه الحالة وصف ما ادعاه مارسيلوس من سايد. في حين اتخذ جالينيوس موقفاً متحفظاً جداً من ممارسة السحر في المعالجة الطبية، أطلق الإسكندر من تراليس العنان للميول غير المنطقية، وكان لنقل كتب الإسكندر إلى العربية تأثيره في العرب. جمع علي بن سهل الطبري للسحر اليوناني الذي نقله من كتابي فيزيولوجاس وكويرانيدس أفكار السحر وطريقة ممارسته في موطنه طابارستان. لم تؤدِّ معرفة البدو من ناحية أخرى سوى دور ضئيل: لم ينقل سوى عريب بن سعيد

القرطبي أحياناً أقوال البدو عن عملية الولادة. لكن ممارسات العرب الشائعة التي دُسَّت على أنها أقوال النبي ﷺ جمعت على أنها «طب نبوي» ثم خلطت بالتعليمات اليونانية. برز ديوسقوريدس عالياً في طب الولادة، لكن أدوية كثيرة جاءت باكراً من فارس والهند.

لذلك يقدم الطب العربي صورة شديدة التلون والتنوع. لم يكن هناك نقص في المحرضات الخارجية، ويتساءل المرء: هل أدى ذلك إلى النقاش الحي مع الجالونيسية، وإلى أن عقيدة جالينيوس لم تختبر بقسوة أو حتى تراجع؟ صحيح أنه كان هناك بعض الحالات الفردية التي نقدت فيها عقيدة جالينيوس، لم يكن هناك تحقيق، فضلاً على إلغاء نظام جالينيوس العام. لم يكن بالإمكان حصول ذلك؛ لأن التطور الحي الذي حصل للطب اليوناني توقف بعد المرحلة الإمبراطورية. لم تنتهِ هذه المرحلة من الركود في الغرب إلاّ في عصر النهضة عندما بدأت الأمور بالحركة مرة أخرى عبر فيساليوس وباراسيلسوس. جاء الطب العربي في مدة همود القرون الوسطى، لكن يجب ألاّ ننظر إلى ذلك بصفته جموداً. لقد تلقى العرب الطب اليوناني في المرحلة الأخيرة من تطوره ولم يكن بمقدورهم إلاّ أن يفترضوا أن هذا النظام كامل ونهائي. عندما كان المجوسي يذكر النظريات اللاجالينيوسية، فقد كان يذكرها لمجرد دحضها مباشرة، لا ليدخل مناقشة حقيقية مفيدة تعطى فيها الفكرة المقابلة حقها. ذكر المجوسي مرة[37] أن بعض الفلاسفة يفترض وجود عنصر واحد بدلاً من أربعة عناصر، هو الذرة في نظر بعضهم، والهواء في نظر بعضهم الآخر، والماء لآخرين غيرهم. يخبرنا في مكان

آخر[38] أن بعضهم يعتقد أن الجسم لا يتألف من أربعة أخلاط بل من خلط واحد، كالدم على سبيل المثال. وفي مكان ثالث يذكر آراء مختلفة عن الروح النفسية: «يؤكد بعض العلماء أن هذه الروح، الموضوعة في الدماغ، هي النفس وأن النفس جسم. في حين يقول آخرون: إن الروح أداة للنفس تستخدمها جميع الحواس، وأن النفس ليست جسماً...» لكن هذه الآراء في نظر المجوسي مجرد فضول، ولا يستحق من يمثّلها ممن لم يسجل حتى اسمه أن يؤخذ على محمل الجد.

في بعض الأحيان كانت آراء الأطباء القدامى تدون على أنها وقائع: يخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى البلدي في كتابه **عن طب الأطفال** كيف منع جالينيوس الأطفال من شرب الخمر البتة، في حين سمح لهم روفوس بشربه باعتدال[40]. يخبرنا في الكتاب نفسه (111: 7) كيف عدّ أبقراط الأرق من بين أمراض الأطفال، في حين كان رأي جالينيوس مخالفاً. «يؤكد علي بن رضوان أن أسكليبيوس قد عارض جالينيوس في تعليقاته على كتاب أبقراط **عن أمراض النساء**، لكن لم تقدم في أي حال من الحالات مناقشة بناءة مع جالينيوس.

لذلك كان هناك سؤال: هل العرب قد أظهروا أي إبداع؟ «عندما نتحدث عن إنجازات العرب في العلم والفلسفة فالسؤال المهم هو: إلى أي حد كان العرب مجرد ناقلين لما اكتشفه اليونان؟ وإلى أي حد قدموا إنجازات إبداعية؟»[41] لا يبدو لي أن هذا سؤال مناسب؛ لأنه يسأل عن مدة لم يبرز فيها سؤال الإبداع، مدة طغى فيها مفهوم علمي مختلف تماماً عن مفهومنا. لم يكن يوجد في العصور الوسطى الإسلامية أبحاث

علمية حقيقية، ولم تكن توجد رغبة في المعلومات التجريبية بحثاً عن الحقيقة. لذلك، لم يكن الطبيب أيضاً، عندما يتعامل مع ظاهرة المرض يحاول أن يستكشف معلومات جديدة، أو إعادة تفسير العمليات التي تجري في الجسم البشري، أو في تطوير معالجات جديدة أكثر ملاءمة.

فيما يتعلق بالطبيب العربي، كان الأدب القديم يُعد مثلاً وسلطة؛ يُعد أنه قد وضعت في هذا الأدب القديم حقيقة طبيعية معينة يستطيع فقط أن يفكر فيها ويطورها ويعلق عليها. لم يكن موقفه من القديم ناقداً أو مفكراً بل كان ساذجاً وقبولياً. كان التقليد القديم في نظره صندوق كنوز يسهل عليه استعماله، ولم يكن من الممكن أن يتخذه عبئاً يمكن أو يجب عليه امتحانه. كان يكرر أفكار اليونان ويجمع ويلم ما تناوله منهم. يصل هذا الجهد إلى ذروته في الموسوعات والمختصرات العظيمة في الطب التي تركها لنا الرازي والمجوسي والزهراوي وابن سينا وآخرون. ما يقدمونه لنا ليس مادة وقائعية مستخلصة من الملاحظات أو عبر الأبحاث والتجارب المنتظمة، بل بناء يعتمد على النظريات. حاك هذه النظريات يوماً ما أبقراط وأطباء الإسكندرية إلى جالينيوس في مدة توتر بين التنظير الفلسفي وظهور العضوية البشرية السليمة والمريضة. لذلك كان هؤلاء علماء حقيقيين. لكن منذ العهد القديم وعبر العصور الوسطى، كانت محاولة الإنسان لمراقبة الطبيعة نفسها ضعيفة جداً. لم يعد العالم الفكري المسلّم به يصحح في المظهر؛ وتوقف تكوين الأفكار. لم يعد من الممكن وضع نظريات أو أنظمة جديدة.

سنحاول فيما يأتي توضيح بعض المشكلات التي واجهت العرب وهم يحاولون تبني الطب اليوناني عن طريق بعض الأمثلة.

الفصول الغريبة

عندما تلتقي الحضارات ويظهر ذلك في نشاط ترجمة عظيم، نميز في العادة بين مرحلتين: التلقي والتمثل. في مرحلة التلقي، التي تأتي أولاً، يقتصر العمل على ترجمة الكتب الأجنبية؛ لاحقاً في مرحلة التمثل، تحوَّل النصوص المترجمة نفسها كلٌّ على انفراد إلى كتب جديدة. لكن التلقي والتمثل قد يحصلان في الوقت نفسه ولدى شخص واحد؛ على سبيل المثال، ترجم حنين عدة كتب يونانية لكنه كتب في الوقت نفسه مراجع عربية للطلاب، وألف كتباً مستقلة عن طب العيون، وطب الأسنان، والغذائيات التي أخذ مادتها من جالينيوس وبول من إيجينا وآخرين.

حصل في بعض الأحيان أن تُلقيت المادة لكنها لم تتمثل. لم تتجاوز قط مرحلة التلقي على الرغم من تكرار ذكرها لاحقاً في الأدب العربي. ينطبق ذلك على سبيل المثال على قائمة الحيات السامة التي نعرفها من كتاب الوصفات العطرية من الحيوانات السامة لفيلومينوس (القرن الثالث للميلاد). يعتقد أن هذه القائمة قد نقلت إلى العربية من كتاب للسموم منسوب لجالينيوس أخذه الكاتب عن فيلومينوس[42]. لم يستطع الكاتب أن يميز بين ما يقارب ثلاثين اسماً للأفاعي اليونانية وربطها بالأنواع العربية. لم يميز العرب بين أنواع كثيرة من الأفاعي؛

يوجد في لغتهم أسماء عامة قليلة فقط للأفاعي مثل الحية والأفعى والثعبان والرقشاء والشجاع. إضافة إلى ذلك، هناك عدد من أنواع الأفاعي التي وصفها فيلومينوس لا يمكن أن تكون قد عاشت في سوريا ومصر والجزيرة العربية، كما لم يكن بإمكان فيلومينوس من ناحية أخرى أن يعرف أفاعي أخرى شائعة في تلك البلاد. ترجم مترجمُ كتابِ السموم اليوناني ببساطة نصفَ أسماء الأفاعي اليونانية. وهكذا أصبحت الباسيليسكوس باسيليقوس والميغيل مغالي. عرّب النصف الآخر بالمعاني المستعارة فأصبحت الخيليدونيا الخطاف، والبتياس البزاقة، والديبساس المعطشة، والأمفيسبانيا المتفرعة إلى جهتين. لم تكن هذه الاستعارات، شأنها شأن الأسماء الأولى، تعني أي شيء للطبيب العربي. مع ذلك استمر تعليم قائمة الأفاعي مع وصف شكلها وأعراض لدغتها وتعليمات العلاج. توجد هذه المعلومات ضمن فصول غريبة في كتب ابن سينا وابن هبال ونجيب الدين السمرقندي ومحمد ابن إلياس الشيرازي وابن القوف[43].

هناك مجموعة أخرى قد تكون مشابهة في غرابتها تتعلق بطب الأتربة. وصف ديوسقوريدس[44] وجالينيوس[45] القوة السحرية لتراب ليمنوس المكون من طين أحمر استعمل ختم أرتيمس المقدس لصنع كتل صغيرة منه. كما وصفا التراب السامياني وتراب شيوس والتراب السيمولياني والتراب الأرميني وغيره من الأتربة التي كانت تستعمل أدوية، ويقال: إنها تحقق نتائج رائعة. يقال: إن تربة سيغيلاتا تفيد ضد السموم القاتلة وعضة الكلب المسعور، وإن التراب الأرميني هو المفضل

لعلاج الطاعون. نرى هذه الأتربة مرة أخرى في جميع كتب الأدوية العربية في المجوسي (المجلد الثاني: 130)، وابن سينا، وابن البيطار من ملاغا[47]. لكن هل كان الصيدلي العربي في إسبانيا أو اليمن أو فارس يستطيع أن يعالج بتراب من جزر بحر إيجة؟ نجد في هذا المثال أيضاً نقلاً مقصوداً لمعلومات ميتة عبر القرون[48].

كذلك كان الأمر في بعض أعراض المرض. كانت أسطورة الرجل الذئب سائدة في منطقة أركادية في اليونان. كان يعتقد أن الإنسان يمكن بين فينة وأخرى أن يحول نفسه إلى ذئب، ويقوم عندئذ بأعمال شريرة. ربما شك الطبيب مارسيلوس من سايد أنه ربما تكون هناك ظاهرة نفسية مخبأة في هذه الأسطورة، فصنف ظهور الرجل الذئب ضمن الأمراض النفسية باسم «الاستذئاب». أخذ إيتيوس من أميدا اسم الاستذئاب ووصل الاسم إلى العرب عند نقل كتابه إلى العربية، ووصفها المجوسي وابن سينا والزهراوي على أنها حالة خاصة من السوداوية باسم قطرب، تماماً كما فعل إيتيوس. لكن لم ير أي طبيب عربي قط في ممارسته رجلاً مستذئباً!

أخيراً يجب أن نذكر مثالاً رابعاً: طالبت رسائل يونانية عديدة عن الصحة العامة بالقيام بتمارين رياضية، لكن ذلك كان يفترض وجود ملاعب أو حجرات رياضية. طالب الكتاب العرب بالتمارين بنفسها ، ووصفوها أحياناً بتفصيل دقيق، لكن لم تكن توجد في المدن الإسلامية ملاعب أو حجرات رياضية. لم يكن بالإمكان ممارسة الجمباز! مع ذلك كانت الكتب الطبية تستفيض في وصف التمارين الرياضية. من

ناحية أخرى، عندما كان كتبة كتب الصحة يطالبون بالذهاب إلى الحمّام، فقد كان بالإمكان اتباع تلك النصائح في البلاد الإسلامية؛ لأن الحمّامات القديمة نسخت بعناية ولا تزال تستعمل في «الحمام التركي» حتى يومنا هذا[49].

لا أريد بالطبع أن يساء فهمي. لقد أعطى الأدب الطبي اليوناني الغزير العرب بالطبع حافزاً هائلاً ووضعهم في موقف يعالجون فيه الأمراض على أسس جديدة تماماً. لكن يجب ألّا ننسى أن هذا كان مجرد معرفة في الكتب، واتضح ذلك في طريقة نقل الكتب الميتة بأسلوب مضحك تم الحفاظ عليه قروناً من الزمن.

الاجتهاد في المصطلحات العلمية

واجهت المترجمين، الذين كان عليهم ترجمة الأعمال الطبية اليونانية والسريانية والفارسية إلى العربية، مهمةُ تكوين مصطلحات تقنية باللغة العربية للمفاهيم والمواد الجديدة. اتبعوا في هذا، كما يحصل في كل مكان، ثلاث طرق: إما أن يتخذوا التعابير اليونانية أو السريانية أو الفارسية كلمات أجنبية؛ أو عرّبوا الكلمات الأجنبية بالمعاني المستعارة؛ أو ثالثاً، استعملوا الكلمات العربية القديمة بمصطلحات محدودة. ترجمت الكلمة اليونانية سينوخوس «الحمى غير المتقطعة» صنوخوس، وكلمة هيميتريتايوس «الحمى نصف ثلثية» أميطريطاوس، وكلمة إيبيالوس «القشعريرة» إيبيالوص، وترجمت ليثارغوس «الإنهاك» ليثارغوص. أحياناً كانت تبقى الكلمات الأجنبية

والأشكال المدمجة منها في العربية جنباً إلى جنب. أصبحت كلمة توكسيريون «البودرة المجففة» بالسريانية كسيرين وبالعربية إكسيرين. إلى جانب هذه الكلمة وجدت كلمة الإكسير التي كتبت في العربية على وزن إفعيل وهي التي أصبحت كلمتنا الإنكليزية إلكسير. نستطيع أن نرى في الكلمات الأجنبية، كما يظهر هذا المثال، خط نقل للطب القديم بالطريقة المبينة آنفاً: وجدت كلمة كاردامومون (حب الهال) طريقها إلى العربية لا في شكلها الأصلي، بل على شكل قردامانا التي تعود إلى السريانية، كما عرف العرب الكلمة اليونانية ساغابينون «القنة» فقط في شكلها الفارسي الأوسط ساكبيناج.

كانت المعاني المستعارة هي الأكثر شيوعاً. أصبحت كاركينوس «السرطان» كلمة سرطان؛ وأصبحت الألوبيكيا «مرض الثعلب» و أوفيازيز «مرض الحية» اللتان تدلان على فقدان الشعر داء الثعلبة وداء الحية. أعاد العرب صياغة هيه هيرا نوسوس «المرض المقدس» وهو من أسماء الصرع، على صيغة المرض الإلهي «نسبة للألوهية» أو المرض الكاهني «نسبة إلى الكاهن»[50]. في حالة طبقات العين، نجد استعمال الطبقة الملتحمة من إيبيبيفيخوس خيتون؛ والطبقة القرنية من كيراتويدس خيتون، والطبقة الصلبة من سكليروس خيتون، والطبقة الشبكية من أمفيبليسترويدس خيتون... إلخ. كوّن عدد كبير من النباتات بالطريقة نفسها: هو بوتاموغيتون «أعشاب البركة» أصبحت جار النهار، وميكون أفروديس «خشخاش الأفيون» أصبحت خشخاش زبادي. وفي حال الأسماء المزدوجة، هناك أسماء هجينة مؤلفة من كلمات أجنبية ومعانٍ

مستعارة: سمي ليخنيس ستيفانوماتيك «منثور الورد» اللخنيس الإكليلي؛ وسمي هيه ديزنتريا هيباتيس «الزحار الناشئ من الكبد» الدزنطاريا الكبدية؛ جاءت هذه الأشكال أحياناً عن طريق ترجمة خاطئة: أصبحت كلمة الجمع اليونانية هوي خويراديس، «الضخامة الغدية في غدد العنق» بالعربية الخنازير؛ لأنهم خلطوا بين الكلمة اليونانية وكلمة هوي خويروي التي تعني الخنازير. وترجمت نيوما زوتيكون «الروح الحيوية» بالعربية روح حيوانية؛ لأن صفة زوتيكوس «حيوي» خلطت بزوديس «مثل الحيوان».

الاحتمال الثالث وهو استعمال كلمات عربية موجودة في معانٍ معينة أقل شيوعاً. كانت كلمة كلف تطلق عامة في الأصل في اللغة العربية على اللون البني المحمر. استعمل الأطباء هذه الكلمة لترجمة الكلمة اليونانية إيفيليس، وهي حالة إنتان جلدي يتميز بتصبغ قاتم غير طبيعي. كان الرمد يعني التهاب العين عامة. استعملها الأطباء بعدئذ مرادفة لكلمة أوفالميا، «التراخوما». تعني كلمة إكليل عامة «التاج». استعملت الكلمة عند ترجمة كتب ديوسقوريدس عند ترجمة كلمة سكياديون، «الازهرار الخيمي»[51]. يسمى الغشاء المحيط بالدماغ في العربية التقليدية «أم الدماغ». لكن الذين ترجموا كتب جالينيوس عرفوا أن هناك غشاءين للدماغ: غشاء خارجي سميك (هي باخيا مييننكس)، وغشاء داخلي رقيق (هي ليبته مييننكس). نتيجة لذلك أخذوا النصف الأول فقط من التعبير وأضافوا مرادفات مختلفة للسميك والرقيق، فاستخدموا الأم الجافية والأم الرقيقة. عندما ترجم قسطنطين الإفريقي (توفي 1087)

كتاب الملكي لابن العباس المجوسي إلى اللاتينية ترجم الأم الجافية ديورا ماتر والأم الرقيقة بيا ماتر(الأم الحنون). عندما فعل ذلك استخلص المعنى الخاطئ من صفة رقيق، التي تعني لطيف، أو هش، أو ضعيف، أو رقيق، إضافة إلى محب حنون. لا يزال كل من هذين التعبيرين يستعمل حتى اليوم في علم التشريح الحديث[52]. تستعمل كلمة كوليريون لوصف «مرهم عيني» كذلك «تحميلة» و «تحميلة مهبلية» وهذا التباس قد يؤدي إلى تخليط خطر في استعمال الأدوية. لم يستغل المترجمون العرب الفرصة لتنقية التسميات، وفي تقليد أعمى لليونان، سموا كلاً من النوعين شياف.

لم ينجحوا في بعض الحالات قط في وضع مصطلح شامل واضح. كان ذلك هو الحال مع كلمة فرينايتس، وهي اسم مرض يمكن أن يطابق ما نسميه اليوم التهاب السحايا[53]. جاءت كلمة فرينايتس إلى العربية كلمة أجنبية بلفظ فرانيطس، لكن نقطة التعليم على أول حرف تشوهت مما جعل عدة أطباء، وفيهم ابن سينا، يلفظها قرانيطس. وحيث إن الكلمة فُهرِسَت تحت حرف قاف، لم يعد بالإمكان تصحيح الصيغة. وعندما ترجم كتاب قانون ابن سينا في النهاية إلى اللاتينية، وضعت علامة خطأ على حرف النون فأصبحت اللغة تقرأ في اللاتينية كارابيتوس[54]. لكن في أوقات سابقة استخدمت كلمة فارسية للتعبير عن الفرينايتس. استخدمت الكلمة الفارسية بيرسام لترجمة الفرينايتس في ترجمة كتاب الحكم لأبقراط (VI, ii; VII, 12)، وكتاب الوصية لأبقراط وكتيبات ألكسندر من تراليس (عام 509)، وبول من إيجينا[55]، الكلمة

مشتقة من الفارسية البهلفية وار (الثدي) وسام (الالتهاب) ولذلك فهي تعني في الحقيقة «التهاب الثدي» أو «ذات الجنب». لا بد أنه قد حصل في هذه الحالة تخليط مع كلمة سارسام «التهاب الرأس»[56]، ولا بد أن هذا التخليط قد حصل؛ لأن كلمتي بارسام وبرسام قد وجدتا طريقهما إلى الشعر الجاهلي وكثر استعمالهما هناك[57]. في بعض الحالات ذكرت كلمتا سرسام وبرسام معاً واحدة عقب الأخرى[58]. عرف الكتبة أن هاتين الكلمتين تشيران إلى مرضين مختلفين.

لكن فيما يخص الرازي وأطباء آخرين، كانت كلمتا برسام وسرسام مترادفتين وتستخدم إحداهما مكان الأخرى. فرق بينهما الرازي (الحاوي، 65، 15) فقط في أن العامة يقولون برسام في حين يقول الأطباء سرسام. لكنه يقول في مكان آخر (الحاوي 1، 219): إن كلمة برسام تستعمل لمرضين مختلفين، للشوصة (التي كان يعني بها نوعاً من ذات الجنب) إضافة إلى التهاب السحايا التي هي في الواقع سرسام. يتحسر ابن سينا (القانون 302، I) وهو فارسي المولد مثل الرازي على التخليط اللغوي: يستخدم الناس الذين لا يعرفون شيئاً عن اللغات البرسام لوصف الفرينايتس مع أن كلمة برسام فارسية الأصل وبار تعني الثدي، في حين تعني سام الالتهاب أو المرض. الكلمة الفارسية للرأس من جهة أخرى هي سار. كتب الجواليقي (توفي 1144) كلاماً مماثلاً في كتابه قاموس الكلمات الأجنبية[59]. لكن الجواليقي أدرك، كما أدرك علماء فقه اللغة ابن دريد وأبو ناصر الباهلي والسكري أن الكلمة العربية مؤم مرادفة لبرسام. ويكمل ابن دريد التشويش بقوله في مكان آخر[60]: إن الكلمة الفارسية برسام كلمة شائعة ويجب في اللغة

النظامية قول جرسام أو جلسام. أخيراً، كان لكل طبيب رأيه الخاص بين الأطباء، كان المجوسي (327، I) يدرّس أن منشأ **السرسام** هو زحار حار في الدماغ نفسه أو انتفاخ حار في أغشية الدماغ، وأن **البرسام** ينشأ أيضاً في الدماغ لكن سببه انتفاخ في الطحال، المتصل بالدماغ بحزمة عصبية. لكن **سرسام** لا تدل فقط على الفرينايتس بل تدل أيضاً على الإنهاك ويتم التمييز بين هذين المرضين بتسمية الفرينايتس «التهاب السحايا الحار» (**السرسام الحار**) والإنهاك «التهاب السحايا البارد» (**السرسام البارد**)[61]. لذلك لم يكن يسهل على طلاب الطب العرب أن يجدوا طريقهم في خضم المصطلحات الشديدة التفاوت.

أسلمة بعض التعابير اليونانية

هناك مشكلة أخرى واجهت العرب وهم يتبنون الطب اليوناني: كان على الطب اليوناني، الذي نشأ ضمن إطار الدين اليوناني أن يواجه الدين الإسلامي الذي لا يعترف بالآلهة الأسطورية بل يؤمن بإله واحد أحد. كان أسكليبيوس إله الشفاء وكانت الإسكليبيات أماكن الشفاء والعبادة في الوقت نفسه. وبينما كان أسكليبيوس يؤدي دور الإله في تاريخ الطب بين اليونان، فقد كان يحترم لدى المسلمين فقط بصفته مكتشف الطب ومنشئه؛ بعبارة أخرى، أخرج من إطار الأساطير ووضع في إطار التاريخ مما أدى إلى إعطائه سجلاً تاريخياً بديعاً. كان يعني وضع أسكليبيوس في إطار تاريخي أنه عندما ترجم قسم أبقراط، فإن الإله اليوناني الوحيد الذي احتمل وبقي وجوده كان أسكليبيوس. يبدأ

القسم اليوناني بالقول: «أقسم بأبولو الطبيب وإسكليبيوس وهيجييا وباناسيا وجميع الآلهة الذكور والإناث، وأشهدهم أنني سأفي بحسب قدرتي وحكمي بهذا القسم وهذا الميثاق»[62]. من ناحية أخرى بدّل القسم في اللغة العربية إلى: «أقسم بالله رب الحياة والموت ومعطي الصحة وخالق الشفاء وجميع الأدوية، وأقسم بأسكليبوس وأولياء الله جميعاً رجالاً ونساء وأشهدهم أنني سوف ألتزم بهذا القسم والميثاق».

بدلت الآلهة الأخرى وألغيت ببساطة. بحسب جالينيوس،[63] يظن السوداوي أن أطلس يحمل السماوات، لكنه يتعب من عبئها ويمكن للسماوات عندئذ أن تقع. عندما كتب إسحاق بن عمران عن السوداوية، قال: إن الله يمسك السماوات أن تقع. لكنه جعل المثال غامضاً واصفاً إياه بالكفر؛ لأن الله لا يمكن أن يكون ضعيفاً وهو القوي العزيز.

نشأت مشكلات أخرى أيضاً بسبب القانون الإسلامي. كان أوريباسيوس[64] قد نصح برش الفتق السري للجنين برماد عظام خنزير. لكن الخنزير محرم على المسلمين. لذلك كتب ابن الجزار في كتابه عن طب الأطفال[65] إنه يجب رش رماد وتر أشيل من العجل على الفتق السري. كتب روفوس كتاباً عن الاستعمالات الغذائية للخمر، نصح فيه بإعطاء الأطفال الصغار الخمر. لكن الخمر محرمة في الإسلام أيضاً، لذلك لم يكن عليهم أن يترجموا الكتاب أصلاً. لكن يشهد لروح الحرية والواقعية التي سادت ذلك العصر أنهم بالرغم من ذلك ترجموا الكتاب إلى العربية، إذ لم يقتبس منه الرازي فحسب، بل الكاتب الأدبي رقيق النديم القيرواني (ولد 1000 للميلاد)[66].

obeikandi.com

استعادة النصوص اليونانية

جلبت حركة الترجمة العميقة كما ذكرنا مئات الأعمال اليونانية إلى العرب. هناك حقيقة أخرى ترتبط بهذا النقل ولا تؤثر في تاريخ الطب الإسلامي لكن لها أهمية كبيرة لعلم فقه اللغة المقارن وعلم التاريخ المعاصرين يجب ألا نهملها هنا. لذلك يجب علينا أن نلقي نظرة على تاريخ النقل.

نقلت أعمال جالينيوس أساساً في مخطوطات تعود إلى نهاية القرن الخامس عشر. إضافة إلى ذلك، فإن الترجمات الأقدم من اليونانية إلى اللاتينية التي قام بها بورغانديو من بيسا (توفي 1193)[67]، ونيكولاس من ريجيوم (1280 - 1350) وبيتر من أبانو (قبل 1303) مهمة أيضاً: كتبت في القرن التاسع معتمدة على مخطوطات سريانية أو يونانية، تعود إلى ستة أو سبعة قرون قبل المخطوطات التي حفظت لنا. لذلك تنشأ احتمالات كثيرة لتصحيح وتنقيح النصوص اليونانية. لكن أهم ما في الأمر هو العدد الكبير من الكتابات التي فقدت من الخزانة اليونانية وحفظت في الخزانة العربية. سوف أعطي بعض الأمثلة على هذه الكتب.

كان كتاب جالينيوس الرئيس يتألف من خمسة عشر كتاباً. توجد في اليونانية الكتب من الأول إلى الثامن وبعض من التاسع. لكن الترجمة العربية حافظت على كامل السلسلة. وحيث إن ماكس سايمون قد نقح النسخ العربية من الكتب الباقية عام 1906 ونقلها إلى الألمانية، فقد أصبحت المجموعة كلها متوافرة للبحث. ترجمت في المدة الفاصلة أيضاً الكتب السبعة الأخيرة إلى الإنكليزية.[68]

obeikandi.com

هناك عمل تشريحي آخر لم يكن معروفاً حتى مدة وجيزة يتعلق بالفوارق بين الأوساط المتجانسة من الجسم. أهدى جالينيوس العمل للفيلسوف أنتيشسينس المهتم جداً بالتشريح، وقد كان أهدى له رسالتين هما تشريح الأوعية والتشريح العصبي. الأوساط المتجانسة وفقاً لأبقراط ووفقاً لجالينيوس أيضاً هي المواد التي تكون بطبيعتها موحدة الشكل ومتجانسة كالمعادن والحجارة والخشب على سبيل المثال، وأيضاً المواد العضوية كاللحم أو الجلد أو العظام. يقابلها الأعضاء غير المتجانسة مثل الأطراف أو الرأس. إذا شرّح الطبيب هذه الأجزاء من الجسم فإنه يصل في النهاية إلى مواد متجانسة لا يمكن أن تقسّم إلاّ كمياً. لا يمكن تقسيم العظم إلاّ إلى قطع عظمية أو شظايا، لكن هذه القطع تبدي صفات العظم الكامل نفسها. عدد جالينيوس نحو خمس وأربعين مادة متجانسة في أعماله، وهي تكوّن إلى درجة كبيرة حجارة البناء التشريحية للجسم البشري. حاول بذلك تأكيد الحقائق التشريحية الحقيقية وتجنب التصانيف التي تعتمد على الاستعمال التقليدي للغة. لا يشكل كل من له اسم مميز نوعاً منفصلاً. تثير النصوص التي أعيد اكتشافها الاهتمام أيضاً من ناحية التاريخ الطبي؛ لأن عقيدة التشريح المتجانس هيمنت على التشريح حتى بداية العصور الحديثة ووقفت في طريق البحث التاريخي[69].

بقي جزءان يونانيان صغيران فقط من كتاب **عن الخبرة الطبية** الذي ترجمه أغوستينو غادالديني من مودينا إلى اللاتينية في القرن السادس عشر. لكن المخطوطة العربية الموجودة في حجة صوفيا في

إسطنبول تحتوي على كامل النص، وقد نشرها ريتشارد والتزر بالعربية وبالترجمة الإنكليزية عام 1944 [70]. كتب جالينيوس هذه الرسالة قبل عام 150 في بيرغاموم عندما لم يكن قد بلغ 21 سنة بعد. من المفترض أنها تعيد سرد الجدل بين أستاذ جالينيوس من مدرسة النظريات الجازمة بيلوبس وبين الطبيب التجريبي فيليبوس. ذكر فيليبوس بوضوح في حديث هجومي عنيف ما يجب أن يفهم عند الحديث عن موقف المدرسة التجريبية. وحيث إن الكتابات الأصلية للمدرسة التجريبية كانت قد ضاعت أصلاً في العهد القديم، فإن النص الحديث يغني معرفتنا عن الاتجاه الطبي الذي نشأ نحو عام 200 قبل الميلاد. حصل ممثلوه على خبرتهم جانب سرير المريض ووضعوا ملحوظاتهم عن المعالجات الناجحة في أسس رئيسة للبحث الطبي، رافضين بصفتهم مشككين أكيدين الأساس النظري/العلمي للطب [71].

كتاب **عن فحص الطبيب** ليس معروفاً في الكتب اليونانية ولا حتى بعنوانه. مع أن جالينيوس لم يذكره عندما كتب سيرته الذاتية فلا شك أبداً في أنها تنسب إليه. توجد الترجمة العربية في نسختين في الإسكندرية والبصرة، لكنهما غير منقحتين. تعطينا المقتطفات من الكتاب المعروفة سابقاً على الأقل انطباعاً عن محتواه. ولأنه لا يوجد فحص واختبار للطبيب تجريه السلطات الحكومية، فقد ترك الأمر للمريض ليفحص الطبيب كما يشاء. يعطي جالينيوس نصيحته كيف يستطيع المريض أن يحكم على قدرة الطبيب وإمكانية الثقة به بدراسة حياته ونتائجه الناجحة. يعطي أمثلة على ذلك من نوادر من حياته الخاصة ولا يتردد

بأسلوبه المتبجح المعروف أن يضع تفوقه وامتيازه في بقعة الضوء. نتعلم من هذا الكثير عن سيرة جالينيوس الذاتية. يخبرنا أنه عندما بدأ عمله ولم يكن قد بلغ الثلاثين عهد إليه كبير الرهبان عندما عاد إلى بيرغاموم أن يكون طبيب المصارعين. تمثل هذه المعلومة التي تؤكدها مصادر أخرى في الوقت نفسه أن الكتاب فعلاً لجالينيوس.

في مثال خامس أود أن ألفت النظر إلى تعليق جالينيوس على كتاب أبقراط **عن الغلاف الجوي** الذي لم يُحفظ منه سوى أربعة مقاطع قصيرة في اللغة اليونانية اقتبس منها أوريباسيوس دون أن يشير إلى اسمها. ترجم حنين بن إسحاق هذا التعليق إلى السريانية لسلماويه بن بونان، وترجم حبيش النسخة السريانية إلى العربية لمحمد بن موسى. ترجم سليمان بن ناثان حمياتي النص العربي إلى العبرية عام 1299، لكن كل ذلك محفوظ في نسخة غير كاملة في أكسفورد لهذه الترجمة العبرية. أخيراً ترجم موسى ألاتينو النسخة العبرية إلى اللاتينية. لذلك، حتى الآن، من كان يريد أن يستعمل تعليق جالينيوس، فعليه أن يعود إلى النسخة اللاتينية المقطعة، المتوافرة في نسخة مطبوعة؛ لكن ذلك مصحوب بخط طويل من النقل، من الطبيعي أنه قد يكون مليئاً بالأخطاء والتشويه. فُقدت النسخة السريانية شأنها شأن اليونانية، ولم يكن يعرف من النسخة العربية سوى بضعة مقتطفات، أي فقرات نسخها الرازي وابن سينا وعلي بن رضوان وميمون وآخرون. كان حدثاً رائعاً لعلماء فقه اللغة أن أعلن عام 1971 عن وجود نسخة عربية كاملة

محفوظة في مخطوط ضمن مجموعة أحمد طلعت بيه (توفي 1927) في القاهرة. لقد استعيدت بذلك تعليقات جالينيوس من مرحلة باكرة نسبياً من النقل. نعرف الآن أن جالينيوس قد علق أيضاً على أجزاء من عمل أبقراط في الأعراق وأنه أبرز أحياناً كتابات ديوسقوريدس وأرتيميدورس كابيتون، مقدماً بذلك فكرة قيمة عن التاريخ المبكر للنصوص.

أستطيع أن أستمر في سرد كتابات جالينيوس التي لم نستردها أو كان يمكن أن نستردها من التراث العربي، لكنني سأكتفي بهذه الأمثلة الخمسة وسأنتقل إلى طبيب آخر اسمه روفوس من إيفيسوس الذي يشابه جالينيوس من ناحية حفظ تراثه في الأدب العربي. ذكرنا سابقاً أن ثمانية وخمسين كتاباً من كتاباته قد نقلت إلى العربية في القرن التاسع، في حين لم يبقَ سوى أربعة كتب كاملة منها في اللغة اليونانية. لكن أوريباسيوس وإيتيوس نقلا الكثير من كتابات روفوس، لذلك يمكن إضافة عدد كبير من المقاطع المكتوبة باليونانية.

لم يكن كتاب روفوس **عن اليرقان** معروفاً إلى اليوم إلا عن طريق الفقرتين 17 و 18 من الكتاب العاشر لإيتيوس. كان إيتيوس، كعادته في ضم المعلومات، قد شمل عمل روفوس وجميع أعمال جالينيوس في كتابه **المواضع الأليمة**[72]، وكتب عن اليرقان دون أن يميز كلام كل من الكاتبين. يمكن اليوم بسهولة معرفة ما كتبه روفوس؛ لأن النص الكامل لكتابه موجود في مكتبة في برلين. يبدأ بقوله:

العملية القيصرية وفق المخطوطة الشرقية 101، (مكتبة جامعة إدنبرة)

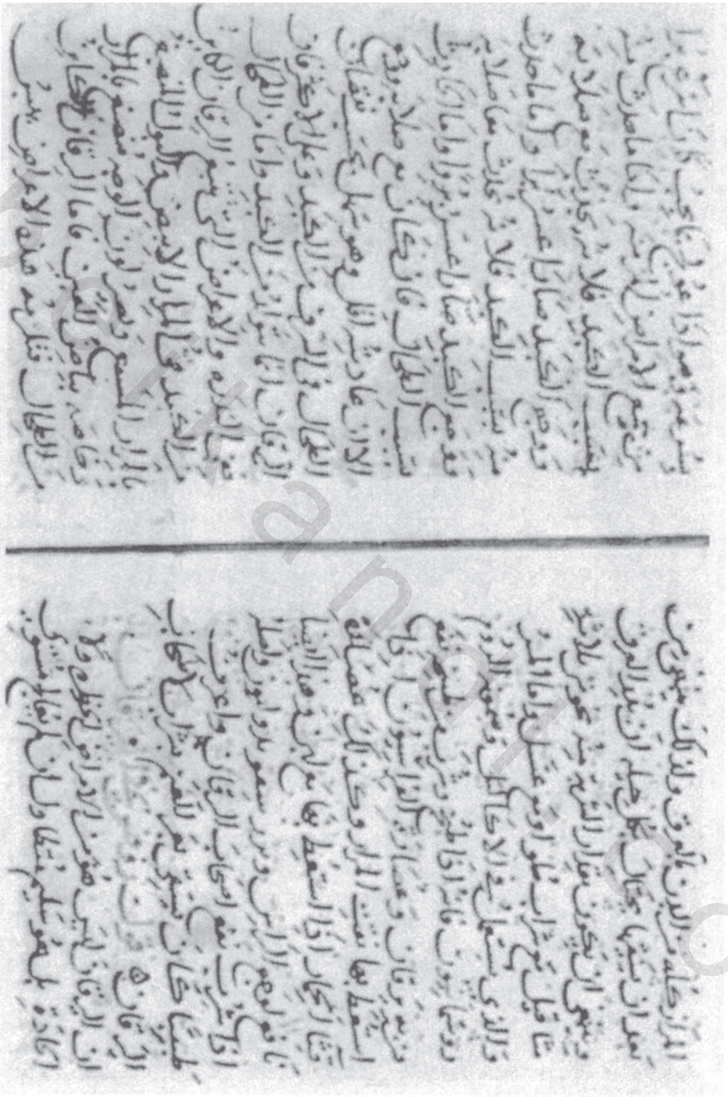

بداية نص عن «اليرقان» لروفوس من إيفيدوس وفق مخطوطة عربية فريدة رقم: 2326, Or. Oct. 104, f.25v/26r (المكتبة الوطنية بروتسيشر كولتوربيستتس، برلين الغربية)

لا ينتمي اليرقان إلى الأمراض الخطرة ولا إلى الأمراض الحادة؛ إنه على النقيض من ذلك مرض حميد، لكن شفاءه يطول إذا لم يعالج بسرعة. إذا أعطي العلاج المطلوب، فإنه يشفى أسرع من الأمراض المزمنة الأخرى. النوع الذي يبدو أن أساسه الكبد أصعب شفاء؛ لأن القساوة والألم يظهران معاً في الكبد. من ناحية أخرى، النوع الذي يبدو أن أساسه الطحال سهل العلاج، حتى لو كان يترافق مع القساوة والألم؛ لأن للطحال نطاقاً أضيق من الكبد. لكن اليرقان ينشأ عادة في الكبد ونادراً ما ينشأ في الطحال.

يتميز الوصف الآتي لأعراض المرض بالدقة والتحديد:

أعراض اليرقان الكبدي هي صفراء وبول أبيضان مشبعان وملونان بالصفراء. الوجه أيضاً ملون بالصفراء خاصة بياض العينين. تحصل الأعراض الآتية في اليرقان الطحالي: جفاف الجسم؛ لون البراز ليس أبيض عادة؛ يميل البول إلى السواد، وفي الواقع يميل لون كامل الجسم إلى السواد. يتبع ذلك رجفة في العضلات وفقدان الشهية وكره الأطعمة الحلوة. إذا كان المرض شديداً فإن المصابين يعانون أرقاً واكتئاباً وهياجاً ولا يمكن أن يتعرقوا. يعرق بعض المرضى الآخرين قليلاً ويفقدون بعض الصفراء في أثناء التعرق. أخيراً هناك مرضى تخرج الصفراء من مخاطية أنوفهم ومن مفرزات عيونهم.

تفاصيل جالينيوس منظمة تنظيماً نظرياً: يناقش أشكال اليرقان المختلفة ومصدرها ويناقش من الحالات المرضية والتشريحية ما هي

الحالات التي تسبب انسداداً في الكبد. يقارب روفوس السؤال مقاربة أكثر عملية: يعطي نصائح عن الحمية المناسبة ويكتب وصفات فيها أدوية مركبة. هذه الوسائل وصفية لكل من الكاتبين.

كتب روفوس أيضاً عن فقدان الذاكرة. وهو موضوع ندرت مناقشته في أدب الطب النفسي المرضي القديم. هنا أيضاً، كان أيتيوس هو الذي جمع في كتابه **المواضع الأليمة** شروح جالينيوس مع نصوص روفوس، دون أن يضع حدوداً بينهما[73]. لكن تمكننا خلاصة أطول من ترجمة عربية لأعمال روفوس للرازي[74] من تحديد تلك الحدود. نستطيع فوراً أن نتعرف المفهوم الأساسي لروفوس: البارد والرطب يؤذيان الذاكرة، لذلك يجب أن يستعمل المرء وسائل مجففة لتحسين حالة المريض لكن يجب التقدم ببطء، درجة فدرجة؛ لأنه إذا لم نفعل ذلك ستؤدي الحرارة الزائدة المفاجئة إلى الضرر بدل النفع. يمكن شرح امتلاك الأطفال ذاكرةً ممتازة مع أن مزاجهم رطب بحقيقة أن تفكيرهم خالٍ من الهموم وأعباء الدراسة؛ لأن الكثير من الدراسة يتعب الدماغ.

النص الثالث محفوظ فقط في مخطوطة عربية في المكتبة البودليانية في أوكسفورد[75]. تحتوي على مجموعة من واحد وعشرين تقريراً سريرياً بعنوان «أمثلة وطرق محددة في العلاج على يد روفوس». سأسرد على سبيل المثال القصة المرضية الثالثة. يكتب روفوس فيها:

> أعرف رجلاً بدأت سوداويته باحتراق الدم. كان الرجل مسالماً ولم يكن الخوف والقلق اللذان راوداه قويين. الأكثر من ذلك،

obeikandl.com

كان كل منهما مخلوطاً ببعض المرح. كان سبب مرضه هو التأمل المستمر في المسائل الهندسية المعقدة؛ ثم إنه كان يشارك في الجلسات الاجتماعية للأمراء. تجمعت بسبب ذلك كمية مَرَضِية من السوداء في وقت من العمر يشجع فيه عمر الرجل على السوداوية على كل حال، أعني عمر الانحدار؛ يضاف إلى ذلك أن طبعه كان حاداً عندما كان في عمر الشباب. كانت الحالة تصيبه عامة في الليل عندما كان يستلقي مستيقظاً، وأيضاً في أثناء الفجر. لكن إن كان نائماً عند الفجر، فقد كان يرى أشباحاً حائمة في منامه، وكان ذلك يتفاوت مع درجة الإنهاك التي يحدثها الأرق. ثم عالجه طبيب غير خبير. أفرغه وجعله يتقيأ عدة مرات في اليوم بأدوية قوية لكن فشل في تحقيق التوازن المناسب في الطبع. لكن تصحيح الطبع في هذا النوع من المرض هو أهم وسيلة علاجية؛ لأن الحثل هو الذي ينتج مثل هذا الخلط ولا يمكن إنهاء إنتاج الخلط هذا إلاّ عن طريق تصحيح الطبع. لكن بعد أن أصبح طبعه حاداً بذلك الدواء، زاد الاحتراق في جسده وازدادت حالته سوءاً إلى حد الجنون. رفض تناول الطعام والشراب وانتهى به الأمر إلى الموت.

نعرف الآن جيداً أن روفوس كتب كتاباً عن السوداوية[76] وأنه قد افترض في كتابه علاقة مباشرة بين العمر والتهيؤ للسوداوية. كلما زاد عمر الرجل زادت خطورة أن يصبح سوداوياً، وهذه النظرية تحديداً هي التي تظهر في هذه القصة المرضية.

obeikandi.com

فُقِد كتاب **السوداوية** أيضاً في اللغة اليونانية. لذلك فإن الاقتباس الخامس عشر في **كتاب الحاوي** للرازي بديل قيّم وإن كان متواضعاً. لكن قد يكون لكتاب **نصوص في السوداوية** الذي نشره إسحاق بن عمران، وهو الطبيب الخاص للسلطان الأغلابيدي زيادة اللّه الثالث (حكم 903 - 909) في نهاية عمره، الأهمية نفسها في تقديم الدليل على عمل روفوس. يبدأ إسحاق كتابه بقوله:

> لم أقرأ كتاباً مُرضياً أو تفاصيل شاملة عن السوداوية كتبه كاتب قديم سوى كتاب واحد كتبه رجل من القدامى اسمه روفوس من إيفيسوس. مع أن هذا الرجل قد كتب كتاباً مؤلفاً من فصلين عن المرض استعمل فيهما قدراته الذهنية، وأجرى اختبارات ممتازة عن المرض وأعراضه وطريقة علاجه، فإنه مع ذلك قد عالج نوعاً واحداً من هذا المرض هو النوع الشرسوفي، ولم يذكر الأنواع الأخرى.

نستطيع من هذه الإفادة ومن الاقتباسات التي ضمَّنها إسحاق في كتابه أن نستنتج أن روفوس قد افترض وجود سبب جسدي للسوداوية: عندما تتجمع كمية كبيرة من السوداء في الشرسوف أو حول فتحة المعدة عقب عسر في الهضم، ينشأ بخار أسود منها ويذهب إلى الدماغ ويحصل نتيجة لذلك حزن واكتئاب وهذيان. لكن بحسب تفسير إسحاق، فإن هذا نوع واحد فقط من السوداوية. يتبع إسحاق في ذلك جالينيوس الذي يفترض في كتابه **المواضع الأليمة**[77]، ثلاثة أنواع من السوداوية؛ إضافة

obeikandi.com

إلى النوع الشرسوفي، هناك نوع ثانٍ يجعل الدم في كامل الجسم سوداء، ونوع ثالث يوجد فيه الدم المصبوغ بالسوداء فقط في الدماغ.

حافظ الرازي أيضاً على بعض المقاطع الصغيرة من كتاب **عن تنشئة الأطفال**، لكن هناك مقتطفات أكثر وأشمل ضمَّنها أحمد بن محمد البلدي (ولد 990) في كتابه **كتاب تطهير الحبالى والأطفال**. بعد حذف المتكررات يبقى هناك ثمانية عشر مقطعاً تكمل بإحكام المقتطفات من كتاب روفوس الذي نقله أوريباسيوس. يحمل الفصل 38 فقط من كتاب أوريباسيوس عنوان: «**عن تنشئة الأطفال، من روفوس**» لكن النصوص العربية تظهر عن طريق المراسلات الشفهية أن الفصول 31، 42، 43 تعود أيضاً إلى أعمال روفوس. عند مقارنة الأدبين العربي واليوناني، يصبح بالإمكان إعادة كتابة كتاب روفوس في جميع النقاط الأساسية[78]. بحسب ذلك نجد أن روفوس قد كتب عن المرضع الرطبة والصفات التي يجب أن تتمتع بها، وعن نوعية حليبها وكيف يجب أن تتغذى. ثم تعامل مع شكاوى الأطفال وكتب عن الطفوح الجلدية، وبروز الأسنان، والتشنجات، والإنهاك، وقرحات الاضطجاع، وأمراض الأذنين والعينين وغيرها. يذكر في باب العناية بالرضيع الحمّام والتغذية الملائمة. هناك فقرة تثير الاهتمام في هذا السياق وهي أوسع وأدق في كتابة البلدي بالمقارنة بأوريباسيوس:

> أطري على الأقوام الذين يسمون اللاسيداإيمونيانين؛ لأنهم لا يعطون أطفالهم ما يكفي لإشباعهم شبعاً كاملاً. نتيجة لذلك نرى أن أطوالهم جيدة وأجسادهم متناسقة ولا يعانون

مشكلات مثل التشنجات والسوداوية والخوف والألم حول القلب أو أي شيء آخر. إذا كنت تريد أن ينمو الطفل طويلاً ومستقيماً وبمزاج جيد، وألّا ينطوي على نفسه، فتجنب زيادة إطعامه واتبع تعليمات اللاسيداإيمونيانين والعادات التي يمكن أن نلاحظها فيهم؛ لأنه عندما يشبع الطفل شبعاً كاملاً، فإنه ينام كثيراً ويصبح منهكاً، ويتسع بطنه ويمتلئ بالغازات ويصبح بوله مائياً.

نحن نعرف أهداف التغذية السبارتانية من وصف كسينوفون وبلوتارك. يقول بلوتارك أن الجسم ينمو في قامته عندما لا ترهق الروح بالحاجة إلى هضم كمية كبيرة من الطعام. يمكن للجسم عندها أن ينهض بسهولة دون إعاقة، وبذلك يصبح الجسم نحيفاً وكبيراً. ينطبق هذا تماماً على تقديم روفوس، لكن روفوس، على عكس بوتارك لا يذكر الروح. يمتنع بذلك عن وضع علاقة بين التغذية والنمو. هناك مبدأ يكمن وراء ذلك شُرح في كتاب أبقراط «**طبيعة الطفل**» الذي نقرأ فيه: «يتكون اللحم من الدم؛ لكنه عندما يزداد فإن الروح تقسّمه بحيث يجد المثيل مثيله، ونتيجة لذلك تكوّن الأغشية المنفردة (الأطراف) نفسها من أجزاء من الروح المتنفسة».